الفصل الرابع

الافتتاح بالتعليل في سورة قريش

للافتتاح بالتعليل بديعة لا ينهض بها افتتاح سواه ، وتصديره سورة قريش أكسبها مزية دون سور الذكر الحكيم ، ذلك الافتتاح هو قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ . . .

وقد اشتجر الخلاف بين أهل العلم ـ فيما يبدو ـ في متعلق هذه اللام على ثلاثة أقوال ، ولكل قول حجج لا يستهان بها ، وقد كشف لنا هذا الاختلاف ـ بفضل منه تعالى ـ وجوها من بدع بلاغة القرآن صارت بها هذه الأقوال الثلاثة متجاورة متحاورة في بيان السور ، وكاشفة عن جهات نظر الأئمة ـ رحمهم الله .

القول الأول : أن هذه اللام متعلقة بالقصة التي في السورة التي قبلها وهي لام التعليل ، والمعنى : أنه فعل ما فعل بأصحاب الفيل لتألف قريش رحلة الشتاء والصيف ، أو لام العاقبة ، والمعنى : أنه أهلك أصحاب الفيل الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك ، فيهابوهم ويحترموهم ، فينتظم لهم

الأمر في رحلتهم أو بمعنى إلى : والمعنى حينئذ ـ تعدادا للنعم ـ ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل . . وإلى إيلاف قريش . . وجعلوا هذا التعليق بمنزلة التضمين في الشعر وقد تأيد هذا الوجه بأن السورتين في مصحف أبيّ بن كعب سورة واحدة دون فصل بينهما بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وما روى من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى ﴿ وَٱلتِّينِ ﴾ وفي الثانية (ألم تر وقريش) من غير فصل بينهما بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، وأن مطلع هذه السورة لما كان متعلقا بالسورة المتقدمة ، وجب ألا تكون سورة مستقلة ، وليس سقوط البسملة . فيما أرى ـ دليلا لهم على ما قالوا .

ولئن اتفقت المصاحف على إسقاط البسملة من صدر سورة التوبة ، فإنه يرجع هناك إلى أمر في مقصود السورة إذ هي في نبذ العهود ـ كما مضى بيانه[1] ، وشيء آخر هو أن قصتها شبيهة بقصة الأنفال لغاية جعلت سيدنا عثمان رضي الله عنه يسقط البسملة خشية أن تكون التوبة جزءًا من الأنفال ، ومع التشابه في قصتي السورتين إلا أن الأئمة لم يجعلوهما سورة واحدة ، على الرغم من سقوط البسملة والتشابه ، وذلك الأمر ظاهر هو أن كل سورة من سور الذكر الحكيم ، تتشابه مع سابقتها في قصتها ، وتقدم للاحقتها في تسلسل بديع ، وليس وجود البسملة مؤذنا بانقطاع هذه العلاقة ، وليس إسقاطها طاعنا في استقلال كل سورة .

وقد ردّ معاندو هذا القول هذه الأدلة ، بأن عدها جزءا من سورة الفيل مخالف لإجماع المسلمين على كونهما سورتين لتستقل كل واحدة منهما بمقصود وأن الاستدلال بإسقاط البسملة من مصحف أبي بن كعب يتساقط

(١) راجع : سورة التوبة في الباب الثالث من هذا البحث .

بإثباتها في المصحف الإمام ولا وجه للاستدلال بعمل عمر رضي الله عنه لأن الإمام قد يقرأ سورتين في ركعة واحدة دون فصل ، وليس العمل حينئذ مؤذنا بعدهما سورة واحدة[1] .

وبقي التعلق اللفظي حجر عثرة بعد تقويض هذه الأدلة ، فإن وجود اللام يقطع بتعلقها بالسورة الماضية ، إذ هي في صدر السورة ، لم يسبقها متعلق ، ووجود البسملة يقطع باستقلال السورة عن سابقتها . فاستحكم القول بالتعلق مع الاستقلال وأضحى المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل ، وليس تعلق أولها بما قبلها حجة ، لأن القرآن ـ كما قال الفخر ـ رحمه الله ـ « كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة ، يصدق بعضها بعضا ، ويبين بعضها معنى بعض ، ومما يقوي القول بهذا التعلق ، أن قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ إشارة إلى أول سورة الفيل ، كأنه قال : فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم ، لأجل إيلافكم ونفعكم ، لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتبا على إيصال المنفعة ، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة »[2] .

والسورة الكريمة تقدم للاحقتها أيضا ، فالذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف هو الذي يحاسب من يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، كما تحكي السورة اللاحقة .

---

(١) راجع : جامع البيان ١٩٧/٣٠، والكشاف ٢٨٧/٤، والبرهان للكرماني ص٢٢٥، ومسائل الرازي ص٥٥٠، ومفاتيح الغيب ٦٨٩/٨، والقرطبي ٧٥٤٤/١٠، وفتح البارى ٦٠١/٨، وابن كثير ٥٥٣/٤، وأبو السعود ٦٩٠/٨، وغرائب القرآن ١٦٨/٣٠، وجزء عم ص ١٢٢، والتحرير والتنوير ٥٥٤/٣٠ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٦٨٩/٨، ٦٩٠ .

وعن الفصل بالبسملة قالوا : «والفصل بين طائفة وطائفة لا يوجب انقطاع إحدى الطائفتين عن الأخرى بالكلية»[1] وإنما هو «لإظهار العناية بما احتوت عليه كل من السورتين ، حتى إن كل جملة مما حوتا يصح أن تقصد لذاتها ، وما تضمنته سورة قريش جدير بالعناية ، لأن الخطاب والتذكير كان لهم ، وهم قومه ﷺ والسامعون لدعوته ، فحق أن يفصل ما يختص بهم عما قبله بفاصل يلفت الذهن إليه ، وإن كان مرتبطا به»[2]، ذلك مما أفضى إليه الافتتاح بالتعليل ، كأنه من دلائل القرآن الظاهرة على اعتلاق كل سورة بما قبلها ، وأن القرآن كالسورة الواحدة تمثل كل سورة من سوره جملة من هذه السورة الكبرى في تسلسل متمانع على التقديم والتأخير بين سوره ، كما هو بين آيه ، كما هو بين جمل آيه ، كما هو بين مفردات آيه ، فلله نوره .

فليس في الذكر الحكيم سورة تصلح أن توضع قبل قريش غير سورة الفيل ، لأنك لن تجد متعلقا للام فيها ، كما تجده في سورة الفيل ، ولله در البقاعي ـ رحمه الله ـ وهو يحرر مقصود هذه السورة ناظمها في سياقها من الكتاب العزيز ، بعدما رأى من هذا التعلق الظاهر ، وبعد ما حفظ أقوال الأئمة في أن هذه السورة شديدة الاتصال بما قبلها لتعلق اللام بقصتها[3] ـ ولعمرى هذا ما نهض به الافتتاح بالتعليل في سورة قريش فكان ظاهرا متعاظم النور ، لا يخفى على أهل العلم شأنه ، وما خفي كان أعظم ، وكم في كتاب ربنا ـ جل وعز ـ من خافية ـ يقول البقاعي ـ رحمه الله ـ :

(١) غرائب القرآن ١٦٨/٣٠ .

(٢) جزء عم : للإمام محمد عبده ، ص١٢٢ .

(٣) راجع : القرطبي ٧٥٤٤/١٠، والبرهان لابن الزبير ، ص٢٤١، وتناسق الدرر ، ص١٥٧ .

«ومقصودها أن إهلاك الجاحدين المعاندين ، لإصلاح المقربين العابدين ـ وهو بشارة عظيمة لقريش خاصة بإظهار شرفهم في الدارين ، واسمها قريش ظاهر الدلالة على ذلك ، والتعبير بقريش دون قومك ، والخمس مثلا ، دال على أنهم يغلبون الناس بقوة كما يدل عليه الاسم وبغير قوة ، كما دل عليه ما فعل لأجلهم من قصة الفيل»[1] .

وتعلق السورة بالفيل كما ترى ، وقد جاءت سورة الفيل ـ كما قال البقاعي مثلا لإهلاك المكاثرين في دار التعاضد والتناصر بالأسباب .

وهو ما تتظاهر على إظهاره سورة الهمزة ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴾ ، والتي تتقابل بدورها مع سورة العصر ، التي تبين فضل الإنسان الحقيق بالفوز ، والتي تتقابل بدورها مع سورة التكاثر ، التي تصرح بأن سبب الهلاك يوم الجمع الذي صدرته القارعة الجمع للمال[2] . وهكذا ترى التناسب يتصاعد نوره إلى أن ترقى إلى الفاتحة فترى نورها يعم نور القرآن نور على نور .

وليس القول بأن مقصودها الامتنان على قريش[3] ببعيد مما قال البقاعي وليس من سياق السورة كما يظهر فيها ، ضع في هذا السياق سورة غير سورة الفيل لن تجد أحسن تلاؤما ، ولا أنسق تلاحما منها في

---

(١) مصاعد النظر ٣/٢٥٠، ٢٥١ .

(٢) راجع : مصاعد النظر ٣/٢٤١ وما بعدها .

(٣) راجع : النظم الفنى ، ص٣٦٦ ويؤازره ما جاء عن أم هانئ قالت : قال النبي ﷺ إن الله فضل قريشا بسبع خصال . لم يعطها قبلهم أحدا ولا يعطيها أحدا بعدهم . أن الخلافة فيهم ، والحجابة فيهم ، وأن السقاية فيهم ، وأن النبوة فيهم ، ونصروا على الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحد غيرهم ونزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم لإيلاف قريش . . . أسباب النزول ، ص٣٤٢ .

موضعها ، وأرجو أن يكون الافتتاح بالتعليل في هذه السورة نواة علم المناسبات في المهد الأول،ذلك ما ذكرت لك من بديعة الافتتاح بالتعليل، ومزية سورة قريش .

القول الثاني : قال طائفة من أهل العلم ـ بعدما ردوا القول الأول كما مضى ـ أن اللام تتعلق بقوله : ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا** . . .﴾ وإنما قالوا ذلك فرارا من عدهما سورة واحدة عند تعلقها بما مضى في سورة الفيل ، وقد مضى بيان أن التعلق بما مضى لا ينافي الاستقلال ، واعترض على أصحاب هذا القول بأنه يؤدي على إعمال ما بعد الفاء العاطفة فيما قبلها وليس بالعربي ، فردوا هذا الاعتراض بالقول بأنها زائدة ، وعليه فقد جاز تقديم معمول ما بعدها عليها ، وفي دعوى الزيادة نظر ، والوجه أن الفاء مؤذنة بأن في السياق معنى الشرط[1] وأن التقدير إن لم يعبدوه فليعبدوا .

وظاهر هذا القول متعاند مع القول الأول ، وليس بذلك ، لأن القول الأول لا يستغنى عنه عند النظر إلى سورة في موضعها من السياق القرآني، وهذا القول هو الأعلى عند نزع السورة من هذا السياق ، والنظر إليها وحدها إلا أن رؤيتك اللؤلؤة بين جاراتها غير رؤيتك إياها مُطَّرحةً بعيدة ، فإن النصح لكتاب الله قاضٍ ـ إذا ما أردت استكشاف بلاغة السورة ـ أن تنظر إليها في موقعها بين أخواتها ، لا سيما أن التعليل يجبرك على استخراج متعلقه فيما مضى ، كأني بالافتتاح بالتعليل يقول : أنا الدليل على هذا النصح . فلا يمنع أحد الرأيين الآخر ، وإنما يتظاهر كل على إبراز مقصود السورة .

---

(١) راجع : الاثنى عشر مرجعا في ص٥٠١ بمواضع صفحاتها وراجع البيضاوي ٥٧٧/٢، والصاوي على الجلالين ٣٥٤/٤، والفتوحات الإلهية ٥٩١/٤ .

وقد استخرج أصحاب القول الثاني بدائع لتقديم هذا المجرور على متعلقه ، فالتقديم يفيد الاهتمام المقدم ، وقد أفاد هاهنا أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة[1] . قال ابن عاشور : هذا «افتتاح مبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل ، وليس بإثره بالقرب ما يصلح للتعليق به ، ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور ، وزاده الطول تشويقا إذ فصل بينه وبين متعلقه بخمس كلمات . . . وتقديم هذا المجرور للاهتمام به ، وتولد من تقديمه معنى جعله شرطا لعامله فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط فالفاء الداخلة في قوله : ﴿ **فَلْيَعْبُدُواْ** ﴾ مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط ، أي مؤذنة بأن تقديم المعمول مقصود به اهتمام خاص ، وعناية قوية ، هي عناية المشترط بشرطه وتعليق بقية كلامه عليه ، لما ينتظره من جوابه ، وهذا أسلوب من الإيجاز بديع»[2] .

القول الثالث : أن هذه اللام تتعلق بمحذوف ، فهي لام التعجب وطريقة العرب الاكتفاء بها دليلا على التعجب[3] ، وأصحاب هذا القول يجدون في الهرب مما اعترض به على أصحاب القول الأول ، وأصحاب القول الثاني ، وهو قول سديد إلا أنه لا يسوغ التقدير والتعليق بمحذوف إلا بامتناع تعلق اللام بظاهر ، وقد مضى أنه يمكن أن تتعلق بسابق أو لاحق ، ومع ذلك فإن هذا الوجه متناسب أيضا مع مقصود السورة ،

---

(١) انظر : الكشاف ٢٨٧/٤، وغرائب القرآن ١٦٨/٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٥٤/٣٠، ٥٥٥ .

(٣) راجع جامع البيان ١٩٨/٣٠، والكشاف ٢٨٧/٤، ومفاتيح الغيب ٦٨٩/٨، والقرطبي ٧٥٤٥/١٠، وابن كثير ٥٥٣/٤، وفتح الباري ٦٠١/٨، وغرائب القرآن ١٦٧/٣٠، وجزء عم ص١٢٢ .

الذي هو الامتنان على المقربين العابدين ، فهو غير متعاند مع القولين السابقين ، بل إنه يحدد لنا مطلع السورة الكريمة ، فعلى هذا القول يكون مطلع السورة هو قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ والقول الأول يحدد هذا المطلع أيضاً بعدما بين أهل العلم أنه لا منافاة بين استقلال السورة وتعلقها بما قبلها ، وكأن هذا التعلق إيذان بتقارب مقصود السورتين ، وهما في الامتنان على قريش لأجل العبادة ، فسورة قريش « تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها ، وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة »[1].

فعلى القولين الأول والثاني تكون السورة من قوله تعالى : ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ ﴾ إلى آخرها مرتبة على ما قبلها ، والقول الثاني يقوي هذين القولين ، إذ هو يجعل العلاقة بين شقى السورة علاقة الشرط بالمشترط ، وبدهي أن الجزاء يترتب على الشرط فالأقوال الثلاثة متآزرة في بيان العلاقة بين مطالع السورة ومقصودها ، ولنا ـ إن شاء الله ـ في مفردات السورة ، وتراكيبها ونسقها ما يدل لما قلنا .

هذه السورة الكريمة تنهض بمقصود لا ينهض به سواها ، وتذكر منة الله على قريش لم تذكر في غيرها ، وقد اقتضى ذلك تفردها بمفردات وتراكيب ونسق لهذه التراكيب . معجم مفردات هذه السورة الذي لم يرد في غيرها (إيلاف ـ قريش ـ رحلة ـ الشتاء ـ الصيف) كما تفردت بهذه الإضافة (رب هذا البيت) والذي جاء في السورة الكريمة من المفردات الأخرى جاء معقودا بشيات هذه المفردات ؛ إذ هي قاموس المقصود فكلمة ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ تذكر مفرداتهما في مواضع أخرى من الذكر

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٣ .

الحكيم ، إلا أنها جاءت معقودة بالكلمة الأولى من السورة ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ ولا ريب أن الكلمة الأولى ألمحت إلى الكلمة الأخيرة ، وأن الأخيرة فسرت الأولى ، وذلك لأمر ظاهر فإن مادة (ألف) تصور الاجتماع مع الالتئام ـ كما قال الراغب ـ [1] ، والخوف يصور التفرق والتمزيق ، ودلالة الخوف تصور أنهم كانوا لا ينزعون إلى هذه الرحلة من شدة الخوف من التخطف ، ودلالة الإيلاف تصور أن الرحلة أضحت أحب الأشياء إلى أفئدتهم ، وفي ذلك بيان عن عظيم المنة ، والبديع أنه لا تخطئك هذه المعاني سواء كان (الإيلاف) مصدرا لألف بتشديد اللام كما قال الراغب ، أو لآلف وعلى الثاني تكون « صيغة الإفعال فيه للمبالغة ، لأن أصلها أن تدل على حصول الفعل من الجانبين ، فصارت تستعمل في إفادة قوة الفعل مجازا ، ثم شاع ذلك في بعض الأفعال حتى ساوى الحقيقة »[2].

ولا ريب أن الاعتبار الثاني ناظر إلى الفعل في قوله : ﴿ وَءَامَنَهُم ﴾ فكأنه سبحانه آلفهم بأن آمنهم من الخوف ، ونقل عن الفراء وابن الأعرابي أن الإيلاف يعنى التجهيز والتهيئة ، والمعنى : لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا ، وعلى هذا القول يكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله ولطفه ، وذلك بانهزام أصحاب الفيل[3] ، والحق ـ إن شاء الله ـ أن التجهيز يكون بسبب الإيلاف ، والإيلاف بسبب أمن الخوف ، فهو داخل ضمن المعنى السابق ،

---

(١) المفردات : مادة (ألف) ص٢٠، ٢١، والمصباح المنير (ألف)، ص١٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٥ .

(٣) راجع : غرائب القرآن ٣٠/١٦٩ .

وأرجو ـ إن شاء الله ـ أن يكون ما ذكره الفراء وابن الأعرابي ناظرا إلى قوله : ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ فإن خوف الجوع يحثهم على التجهيز للرحلتين اللتين تطعم قريش بسببهما ، بذلك تتسع دلالة الإيلاف ، لتشير لكل السورة ، ولتعقد الألفاظ الشائعة في الذكر الحكيم بها ، فإن الجوع هو غاية العوز والحاجة ، وهذه الفاقة تعكس حجم الخوف ، أيُّ خوف هذا الذي يمنع الإنسان الطعام مع شدة الحاجة وعظم الفاقة؟ بل أي رب هذا الذي آمنهم من هذا الخوف؟ بل أي رب هذا الذي قلب لهم الخوف أمنا فألفوا الرحلة ـ جالبة الطعام ـ بعد تأب من تمنيها لشدة هذا الخوف؟ بل صارت أحب وآنس لقلوبهم ، لأن بها الطعام الذي تقوم به حياتهم أيُّ نعمة هذه؟ لا ريب أن هذه الكلمات القصار تجمع تحتها كل ما ذكر المؤرخون في تاريخ شبه الجزيرة ، وما ذكر الشعراء وأهل البيان ، من تصوير ما كان عليه العرب من الخوف أرأيت إلى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (العنكبوت:٦٧)، وقوله : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص:٥٧).

لا ريب أن كلمة التخطف في الآيتين الكريمتين ـ إحداهما : بلسان الله سبحانه وثانيتهما : حكاية قول الكفار بلسان الله ـ لا ريب أنهما تصوران شدة الخوف ، فما إن يخرج أحدهم خارج جبال مكة إلا وتخطفه الناس أو السباع أو قل ماشئت ، كانت قريش حينئذ ـ قبل الإيلاف ـ نهبا موزعا بين تمزيق الجوع أحشاءها ، وتقطيع الخوف قلوبها .

ذلك من ثراء دلالة (الإيلاف) اضرب صفحا عما قاله أهل العلم في هذه الكلمة ثم ضع مكانها أى لفظ شئت ، ناظرا إلى معاجم لغة العرب من بين يديك ومن خلفك قل مثلا : لتجهيز قريش رحلة الشتاء ـ لحب قريش رحلة ـ لاعتياد قريش رحلة ـ ثم انظر كيف يكون المعنى ، وكيف يتساقط كل لفظ تقترحه ـ بغية استكشاف شيء من بلاغة لفظة الكتاب ـ مع بقية السورة .

شيء آخر يضيف ثراء إلى دلالة (الإيلاف) في عطف البيان [إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ...) وقد ذكر أهل العلم فوائد منها أنه « كرر لأن الثاني بدل من الأول أفاد بيان المفعول ، وهو رحلة الشتاء والصيف »[1]. أو أنه « أطلق الإيلاف ، ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيما لأمر الإيلاف وتذكرا بتعظيم المنة فيه »[2] ، أو لأن « الأول عام في كل مؤانسة وموافقة كانت بينهم ، فيدخل فيه مقامهم وسفرهم ، وسائر أحوالهم ، ثم خص إيلافهم الرحلة بالذكر ... لأنه قوام معاشهم ، وفائدة ترك واو العطف التنبيه على أنه كل النعمة »[3] ، هذا موقع التابع في ثراء المعنى ـ دأب الذكر الحكيم في كل الاستعمالات ـ فقد أفاد الأول النعم الأخرى على قريش مضافة إلى نعمة إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، ومن نعمة الله على قريش أن ساق إليها الأمر بعد بيان نعمته عليهم ، وذلك ضرب من الإيلاف ، لأن « الإلزام ضربان : إلزام بالتكليف والأمر ، وإلزام بالمودة والمؤانسة »[4] فالأنسب بالمقام أن تتقدم المنة على الأمر وذلك من بلاغة نسق التراكيب .

---

(١) البرهان للكرماني ص٢٢٥، ٢٢٦ .

(٢) الكشاف ٢٨٨/٤، وإرشاد العقل السليم ٦٩٣/٨ .

(٣،٤) مفاتيح الغيب ٦٩١/٨، وغرائب القرآن ١٦٩/٣٠ .

هذا السياق الذي يشتمل المودة والمؤانسة سبيلا قضى باستخدام لفظة (قريش) ، وقد فسره أهل العلم ناظرين إلى هذا السياق ، فقد ذكروا أنه تصغير القرش ، وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ، ولا تطاق إلا بالنار ، وتَأْكل ولا تُؤْكل ، وتَعْلوا ولا تُعْلى والتصغير حينئذ للتعظيم عند أهل العلم نظرا لسياق المؤانسة ، ولا يبعد أن يكون في هذا الاستعمال إشارة إلى علو قريش أمم الأرض بعد ـ كما ذكر البقاعي وصدقه الزمان من قبل ، وذكروا أن هذه التسمية من القرش وهو الكسب ، لأنهم كانوا كسابين لتجارتهم ، وهو متناسب جدا مع المنة المذكورة ، أو أنه من التقرش ، وهو التجمع وذلك لاجتماعهم بعد افتراقهم وهو متناسب أيضا مع نعمة الإيلاف أعظم تناسب ، أو أنه من التقريش بمعنى التفتيش ، لأنهم كانوا يفتشون على ذوي الخلات ليسدوا خلتهم ، وذلك يكون عن غنى وكأن الغنى بالرحلتين وكانتا بأمن الخوف وكل من الله ، فهو معنى يتناسب مع السياق من هذا الوجه[1] أيضا المهم أنك ترى لما ذكره أهل العلم مناسبة بالسياق ، لذا لا يصلح لفظ غيره في موضعه بل لا يتناسق مع قصة الفيل ، إذ قريش كانوا سدنة البيت ، لذا لم يصلح هاهنا لإيلاف أهل مكة أو غير ذلك .

وقد أتاح عطف البيان ذكر قريش مرتين بالإظهار والإضمار ووقع المظهر بين الإيلافين ، ولولا عطف البيان لما كان هذا الأمر ، ولما أشار السياق إلا إلى منة واحدة هي إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، وقد

(١) راجع في توجيه هذه التسمية الكشاف ٢٨٨/٤، ومفاتيح الغيب ٦٩٢/٨، والقرطبي ٤٥٤٦/١٠، وغرائب القرآن ١٦٩/٣٠، وإرشاد العقل السليم ٦٩٢/٨، والصاوي على الجلالين ٣٥٣/٤، ٣٥٤، ومصاعد النظر ٢٥٠/٣، ٢٥١ .

استخدم (الرحلة) بالكسر وهي «اسم من الارتحال ، وقد ذكروا أنها بالضم اسم لما يرحل إليه . يقال (قربت رِحلتنا) بالكسر ، ويقال : (وأنت رُحلتنا) بالضم أي المقصود الذي يقصد إليه»[1] ، وفي إضافة الرحلة إلى الزمان مجاز علاقته الزمانية ، وهو يدل على استغراق الفعل زمانه وهذا التجوز في الإسناد يتناسب والإيلاف ، فإن دليل اتساع منته اتساع زمانها ، حتى لو رحلوا في كل يوم من أيام هذين الفصلين ، ولو ذكر المكان مكان الزمان لفاتت هذه الدلالة ، ثم إن في إسقاط المكان مع معرفة قريش به دلالة أخرى تتآخى مع الإيلاف هي تصوير اتساع حركة ارتحالهم إلى أي وجهة أرادوا ، وأى مكان قصدوا غير ما كانوا يقصدون في ارتحالهم ، لهذه النكات وغيرها مما يمكن أن يستخرج كان استعمال المجاز العقلي في حاقّ موضعه ـ دأب الذكر الحكيم .

كل ما مضى كان تفصيلا للمنة المسوقة بين يدي قوله سبحانه : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ . . . ألا ترى في الكلمة الماضية ـ بما تصوره من البحث عن حالة قريش قبل الإيلاف ، والبحث عن أسباب نفورها من هاتين الرحلتين ، على عظيم فائدتهما فإن بهما الطعام قوام حياتهم ـ ألا ترى أن كل ذلك وغيره يدفع إلى البحث عن رب هذا الإيلاف؟ وأنه يعرف ـ سبحانه ـ بنعمته ، لذا فقد استغنى النظم الكريم بالمعرفة الضرورية عن أن يقول : لإيلاف الله قريشا . . . ألا تلمح ـ معي ـ أن في حذف هذه الإضافة تلويحا بأن قريشا ـ بعبادتها الأوثان ـ تسند الإيلاف لغير الله لنفسها ، ظنا أو لأوثانها جهلا؟ .

---

(١) المصباح المنير : مادة (رحل)، ص٢٢٢ .

فمن رد أصحاب الفيل عن البيت؟ لا أنتم ولا أوثانكم ، وإنما بما أقررتم أن للبيت ربا يحميه ، وهنا لا تجد بدا من تعليق اللام بقصة الفيل ، فإنما ألفت قريش رحلة الشتاء والصيف لجوارهم البيت وخدمه ، وتكفل الله بوضع مهابة بيته في قلوب الناس أجمعين ، وذلك الحبشي نموذج لمغالبة هذه المهابة ، ومحاولة إذهابها من قلوب الناس بتسامعهم أمر ذلك الحبشي وكانت مهابتهم من مهابة هذا البيت ﴿ **فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ** ﴾ ..

لقد كان حتما ـ لما مضى ـ أن تختص السورة بهذه الإضافة التي تشير إلى صنيع الله بالبيت ، وتومئ إلى سبب الإيلاف ، وسبب أمن الخوف الذي بأمنه كانت الرحلة التي كان بها الشبع بعد الجوع .

وفي هذه الإضافة وجهان : **الأول :** «أنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها . . . . . **الثاني :** لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب ، فذكر ذلك لهم تذكيرا بالنعمة»[1] .

قال ابن عاشور : «وأوثر إضافة (رب) إلى هذا البيت دون أن يقال : ربهم ، للإيماء إلى أن البيت هو أصل نعمة الإيلاف ، بأن أمر إبراهيم ببناء البيت الحرام ، فكان سببا لرفعة شأنهم بين العرب . . . وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت الحرام وفضله»[2] .

وقد كان «احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التي كانت تحتمى بها قريش في أسفار أرباب التجارة فيها ، ولهذا ألفت نفوسهم تلك الأسفار ... ولو نزلت مكانة البيت . . . لنفروا من تلك الرحلات ... وهذا الإجلال . . إنما هو من تسخير رب .. البيت ـ سبحانه ـ فإذا كانوا يعرفون أن هذا كله ، إنما هو فضل رب هذا البيت فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره؟»[3]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٧٥٥١ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٠ .

(٣) جزء عم ص١٢٢ .

«وما قاله المخالفون هو توليد لكلمة السالفين ، فقد ذكر السالفون أن الإشارة تفيد التعظيم ، وأن تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة : «إن للبيت ربا يحميه»[1] مع تذكر ما قالوه من أن الإشارة هذه تومئ إلى قصة الفيل ، وتعين على القول بتعلق اللام في (لإيلاف) بالسورة الماضية .. أرأيت إلى هذه الإضافة وما أثرت من الدلالات ، وما بينها وبين الإيلاف من الاختلاف الظاهر؟ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾...

قال ابن عاشور في علة هذا الوصف «وأجرى وصف الرب بطريقة الموصول لما يؤذن به من التعليل للأمر بعبادة رب البيت الحرام بعلة أخرى ، زيادة على نعمة تيسير التجارة لهم»[2]. وقد ذكر قبل ذلك أنهم استغنوا بالتجارة ، لأنهم لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع ، وكان ذلك ـ عنده ـ وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف ، مع أن لله عليهم نعما كثيرة ، لأن حب الإيلاف كان سببا جامعا لأهم النعم التي بها قوام بقائهم»[3].

والذي أراه أن في إجراء هذا الموصول ـ مع ما ذكر ابن عاشور ـ فائدتين : إحداهما بجملة الصلة ـ والأخرى بالجملة المعطوفة عليها ، فالجملة الأولى كشفت عن أثر الإيلاف (الإطعام) وحالهم قبل الإيلاف بقوله ﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ وكان بحسب النظم أن يقول ﴿ أَطۡعَمَهُم ﴾ لكن الإيلاف بدلالته يصور ما مضى وما هو كائن من حال قريش ، والعلماء يذكرون أن ﴿ مِّن ﴾ بمعنى بعد أي بعد جوع ، وهو متناسق مع دلالة الإيلاف ، أو البدلية ، لأن بلادهم تقتضي أن يكون أهلها في جوع ، فإطعامهم بدل الجوع ، الذي تقتضيه البلاد ، وهي لا تتنافى مع المعنى الماضي ،

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٦٩٣/٨ .
(٢) التحرير والتنوير ٥٦١/٣٠ .
(٣) انظر : التحرير والتنوير ٥٦٠/٣٠ .

وتضيف إليه ثراء يناسب سياق النعمة ، أو أنها تعليلية أي أطعمهم بسبب الجوع ، وهو معنى معاند للسياق فكل يطعم بسبب الجوع ، فلا مزية لهذه النعمة على قريش ، وهو على غير ما تجري السورة على لاحبه وما قالوه في ﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ قالوه في ﴿ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ وزادوا أن ﴿ مِّنْ ﴾ في ﴿ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ للتعدية ، يقال : آمنه الله الخوف ومن الخوف[1] .

وقد ذكر الفخر أن ﴿ مِّن ﴾ في الموضعين بمعنى (عن) قال : ـ رحمه الله ـ «فإن قلت : لِمَ لَمْ يقل عن جوع وعن خوف؟ قلنا : لأن معنى عن أنه جعل الجوع بعيدا عنهم ، وهذا يقتضي أن يكون ذلك التبعيد مسبوقا بمقاساة الجوع زمانا ، ثم يصرفه عن و ﴿ مِّنْ ﴾ لا تقتضي ذلك ، بل معناه أنهم عندما يجوعون يطعمون ، وحين يخافون يؤمنون»[2].. وهو ناظر إلى سياق هذه المنة ، وغير متعاند مع ما مضى من معناها .

والجملة المعطوفة على جملة الصلة كشفت عن سبب إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وأرجو أن يكون تأخيرهما كاشفا عن معنى مؤداه : كيف لا يعبدونه لنعمة الإيلاف؟ لئن كان ذلك منهم احتقارا لها ، فهم ضالون ، إذ الإيلاف دليل الأمن ، فمن آمنهم؟ والارتحال سبيل طعامهم فمن آلفهم به؟ ذلك ما يؤدي إليه نسق التراكيب فيما يبدو لا سيما أن وسائل التعظيم بادية في تنكير الجوع والخوف ، من بعد جوع أي جوع؟ ومن بعد خوف أي خوف؟ فقد ذكر أهل العلم أن التنكير في الجوع والخوف لشدتهما[3] ويرى ابن عاشور أن «التنكير للنوعية لا للتعظيم

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٦٩٤/٨، ٦٩٥، والقرطبي ٧٥٥٢/١٠، ، غرائب القرآن ١٧٠/٤٠، والصاوي على الجلالين ٣٥٤/٤، والفتوحات الإلهية ٥٩٢/٤، والتحرير والتنوير ٥٦١/٣٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦٩٤/٨، ٦٩٥ .

(٣) راجع : الكشاف ٢٨٨/٤ .

وحجته في ذلك أنه لم يحل بهم جوع وخوف من قبل»[1] والتنكير قد يفيد التحقير ويكون المعنى : أنه ـ تعالى ـ لما لم يجوز ـ لغاية كرمه إبقاءهم في ذلك الجوع القليل والخوف القليل فكيف يجوز في كرمه ـ لو عبدوه ـ أن يهمل أمرهم ، ويحتمل أن يكون المراد أطعمهم من جوع دون جوع ، وآمنهم من خوف دون خوف[2].

وهو جار في التكليف في سياق المؤانسة ، ودلالته على التعظيم جارية في سياق الامتنان ، فهو حينئذ من وسائل إظهار المنة ، وبيان عظمها ، ثم إن في هاتين الجملتين إيماء بتخويف قريش بتعذيبها بإذاقتها لباس الجوع والخوف كما قال ربنا ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ** ﴾ (النحل:١١٢) .

فسياق هاتين الجملتين يؤازر البيان عن نعمة الإيلاف ، وقد فسر الأئمة الخوف بأنه الخوف من الإغارة أو الجذام ، والصواب ـ كما قال أبو جعفر ـ رحمه الله ـ «أنه يعم كما عم ـ جل ثناؤه ـ فيقال : آمنهم من المعنيين كليهما»[3]..

هذا ما ساق إليه القول في الافتتاح بالتعليل ، والأمر كما رأيت من العلاقة بين مفردات السورة ، وبين تراكيبها وأحوال مبانيها .

فلله الحمد والمنّة ...

* * *

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٥٦١/٣٠ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٦٩٥/٨، وإرشاد العقل السليم ٦٩٣/٨، وغرائب القرآن ١٧١/٣٠ .

(٣) راجع : جامع البيان ٢٠٠/٣٠ .